وصايا العجوز

عند التاسعة مساءً، في تلك المحطة المكتظة بالمسافرين، تجلس منفردة على مقعد خشبي، ملتحفة شالها الصوفي متحسسة بين الحين والآخر قبعتها السوداء الفاخرة التي صارت مبللة كليةً بفعل الأمطار الغزيرة التي لم تنفك عن الهطول طيلة الظهيرة، ترتجف من شدة البرد وكأن أوردتها تصلبت، تحاول تدفئة يديها بما تزخر به أنفاسها من حرارة، على وجهها الممتلئ ينتشر النمش بعشوائية مفصحًا عن بوادر الجمال الممتزج بعنفوان الشباب، عيناها الخضراوان الواسعتان تحتضنان عزائم الدنيا ونهرًا جارفًا من الثقة اللامتناهية بالنفس، أما خلف جبينها الضيق، فيتخفَّى عقلٌ ثريٌ وأنيق، يعلوه شعرٌ ثعلبي اللون مجدول بعناية..

فجأة يهتز المكان بصوت صافرة القطار، فتتسع حدقتاها وتتزاحم أنفاسها راسمة على مطلعها ابتسامة عريضة، إنها على أهبة الاستعداد لتغادر هذا المكان اللعين، لوهلة صارت جلَّ أمالها معلقة بتلك الصافرة وبذاك القطار الذي طالما طاردته، محاولةً اللحاق به كأكبر حُلم قد تحققه في حياتها، فهذا القطار ليس كغيره مطلقًا، إنه المركبة السحرية التي ستنتشلها بعيدًا جدًا عن مآسي ماضيها وتجاربها المتعفنة، هي بحاجة للرحلة الطويلة التي ستخوضها على متنه، لتصفي ذهنها وتمنح حياتها بداية جديدة، إنه تأشيرتها للحياة التي طالما تمنت أن تعيشها،

فقامت مسرعة باتجاهه كطفلة تترقب والدها المحمل بالهدايا، وكأنها تقول له "لن أضيعك هذه المرة".

اختارت لنفسها مقصورة، وسارعت بنزع شالها وقبعتها كي لا تصاب بالبرد، ثم لزمت سريرها بعد أن فكت جدائلها، لقد كان إرهاقها يضاهي شغفها بالرحيل، وربما يفوقه بكثير، فلم يكن متوجبًا على النوم أن يداعب جفونها مطولا كي تستسلم له وربما ما تواطأ مع الإرهاق كانت هدهدات القطار المتناوبة التي استلمت روحها وراحت تخلصها من كل متاعبها ومحنها، يكفي أن تسترخي وتتوقف عن التفكير بانغماسها في الأمواج التي يعتليها القطار بين الثانية وأختها كي تكون طريدة سهلة للنوم.

كانت قد بلغت ذروة الأحلام عندما أيقظتها صافرة القطار وتوقفه المفاجئ، أخذت تفرك عينيها ثم تشرئب برأسها كي تتفقد أغراضها، لقد كان كل شيءٍ في محله، لكن لماذا توقف القطار في هذا الجسر المرتفع وهو لا يحوي أي محطة؟ تراه عطل تقني؟ كان كل شيء راكدًا كجثة غادرتها الروح ماعدا الصافرة، قررت أن تلقي نظرة خارج مقصورتها لعلها تلتمس تبريرًا من أحد المسافرين أو أحد العمال المتجولين، تفتح البوابة، تراقب المكان لكن ما من مارٍ، وما من مسافرٍ يبدو عليه الاستغراب من الحادثة، فجميعهم ملازمون لمقصوراتهم التي تنبعث منها قهقهات متعالية وكأن ما يحدث لا يعنيهم البتة، تتقدم بخطوات إلى اليسار عازمة الاستفسار من المسافرين في المقصورة المجاورة، تأخذ نفسًا عميقًا، وما كادت يدها تلامس البوابة حتى انطلق القطار من جديد مكملًا رحلته الطويلة، تزفر بارتياح متحسسة نبضها الذي أخذ يستعيد وتيرته الاعتيادية، ثم تَهُم راجعة إلى مقصورتها، توصد بوابتها، ثم

تستلقي لترتمي بين أحضان النوم من جديد، ولكن قبل أن تغادر الواقع أحست يدًا تمسح برفق على رأسها فتنتفض فزعة، فإذا بها عجوز زنجية محدبة تتوكأ على عصًا صفراء، شعثاء، تلبس عباءة صوفية وقبعة تنسيق سوداء، تتأملها بعيون تفيض إعجابًا وثناءً، تعتدل الفتاة في جلستها ثم تسألها والخوف يتحاشر في حلقها:

- من أنت؟ وماذا تريدين مني؟

تجيبها العجوز بعد تأمل مطول مقرون بابتسامة داهية:

- أتعلمين يا ابنتي؟ هذا العالم مليء بالشر والنفوس المريضة، الكل ينهش الكل وكأننا في غابة، ولا مكان للضعفاء أو الحالمين فيه..

تقاطعها:

- لكن.. عذرًا! هل أنت بخير؟ كيف تقتحمين مقصورتي بهذه الطريقة؟

- الناس سيئون للغاية يا ابنتي، قد يرافقونك سنينًا؛ فقط ليظفروا برغائبهم، فلا تثقي بأحد، لأن الأقنعة تسقط في النهاية فقط، لا تقدمي كل ما لديك، وخبئي طيبتك جيدًا، فالطيب ساذج في هذا العالم الوضيع، وأحلامك.. أحلامك.. فلا تفصحي عنها لأحد، لأنها تعنيكِ وحدك، وأحزانك لا تشاركيها مع أي شخص فما من أحد يكترث لمصابك، أو يعنى بمساعدتك..

تتأملها الفتاة في صمت وهي مسترسلة:

- كافحي من أجل كل حلمٍ تمنيت تحقيقه، ابحثي عن مراكز قوتك بداخلك ولا تلتمسي الدعم من أحد، بوسعك تحقيق كل المشاريع التي تحلمين بها؛ شرط أن تمتلكي عزيمة تناطح السحاب، قلبي عن المعنى الحقيقي لوجودك في هذا الكون واصنعي لنفسك شعارًا متمردًا، وتذكري يا ابنتي أن الله معك في كل خطوة تخطينها، وأنه يثق بك ويميزك عن ملايين البشر على هذه الأرض، فابحثي بعمق عن تلك الميزة ولا تكوني كالآخرين الذين يعيشون على بقايا الأوهام، غيري ما يمكنك تغييره، فإن لم يكن بمقدورك ذلك فتأكدي من أنكِ في المكان الأنسب لك وأنه قد حان الوقت لتتقبلي واقعك بحبٍ وامتنان، وتغيري عاداتك ومعتقداتك بشأنه..

تقاطعها الفتاة:

- ولكنني خائفة! ألم تقولي لتَوِك بأن العالم مليء بالشرور؟ أتظُنين حقًا أن هذه النفوس المريضة ستسمح لي ببلوغ مآربي؟

- بلى، ولكنني قلت أيضا بأن الله معك، فأي مصدر آخر قد يمُدك بالقوة والشجاعة غيره؟ واجهي مخاوفك؛ لأن الخوف في كثيرٍ من الأحيان؛ ما هو إلا عبارة عن عقبات تضعينها -باسم الوهم- في طريقك وهي في الحقيقة غير موجودة، أما آلامك وخيباتك وكل شظايا ماضيكِ فيمكنك استغلالها لصالحك، لأن النجاح المبهر عادة ما يكون حصيلة للضربات الموجعة، يمكنك جمع الشظايا وإعادة تشكيلها من جديد بالطريقة التي ترضيكِ..

تقاطعها:

- لكن رغم ذلك ستبقى الآثار كما هي، ستكون الخدوش بارزة.

- ليس بالضرورة، يمكنك تحويل الخدوش إلى فسيفساء جميلة تنحتينها بعناية، فتلونينها كما شئت، وتدهشين الجميع بحرفيتكِ، وفي نهاية المطاف لن يكتشف أحد حقيقة تلك الفسيفساء؛ فالناس تهتم للظاهر عادة.. عليكِ أن تُخفي كل جراحك كي لا تُستعمَل ضدكِ كورقةٍ ضاغطة.

تتأمل الفتاة في صمت كلام العجوز، ثم تأخذ نفسًا عميقًا تليه ابتسامة عريضة، ثم تُبادرها بتساؤل:

- شكرا لك سيدتي.. لكنكِ لم تطلعيني على هويتك!

- تتجاهل تساؤلها وتكمل: إياكِ أن تسعدي أحدا على حسابك، فلا أحد يستحق، وإن كنت ترغبين بالتضحية فأبويك أحق بها من الحمقى الذين يحيطون بك.. ولا تتزوجي لكي ترضي الآخرين؛ فالقطار لا يفوت أحدًا، تزوجي فقط عندما تقتنعين بأنك عثرت على الرجل المناسب الذي سيجعل رحلتك ممتعة ومميزة، ويشجعك على إبراز أروع ما فيك..

تتجه العجوز باتجاه البوابة، ثم تلتفت مسترسلة:

- أتوقع لك مستقبلًا مزهرًا.. اعتني بنفسكِ يا"صوفيا" ولا تنسي أبدا ما قلته لك.

- لكن.. من تكونين؟ وكيف تعرفين اسمي؟

تبتسم:

- كيف أعرفكِ؟! أعرفكِ منذ وُلِدتِ، مُنذ وَّثقتُ أولى نبضاتك في سجلي.

تخرج العجوز وتوصد البوابة خلفها تاركةً "صوفيا" شاردة بما قالته، وماهي إلا لحظات حتى أطلت العجوز من جديد وقالت:

- أنا "الحياة" يا "صوفيا"! وآمل من أعماقي أن تنفذي تعليماتي.

ثم انصرفت بوتيرة بطيئة؛ أتاحت للفتاة الفرصة لتراقبها وهي توقف القطار للحظات لتتمكن من النزول، ولتختفي بعد ذلك في الضباب الذي يغطي الأفق، بينما يواصل القطار رحلته السرمدية.

تمت

بقلم / فاديا رمضاني - الجزائر